التجارب الدينية

من الوجهة النفسية

ملخصه عن وليم جيمس . ت . توليس

ان القول بان الدين هو طريقة سلوك او انه مجموعة اعتقادات او انه نظام عاطفي ليس بالتعريف الصائب فالدين هو مجموعة هذه الاقوال فهو سلوك معين مظهره اعتقاده وهو مجموعة اعتقادات تتوقف على اتباع سلوك مخصوص . يستحيل ان يكون الانسان متعبدا اذا لم يسلم بوجود كائن او كائنات يتقدم لها بعبادته . ونحن نريد بهذه المقالة التكلم عن التجارب الدينية أو العواطف التي تلازم هذا السلوك . من المرجح ان لكل انسان تجارب دينية ولو في مرحلة من مراحل حياته وكذلك متصوفوا المتدينة هم أكثر الناس تأثرا بهذه التجارب في سلوكهم فان الشعور بالطمأنينة بعد الصلاة او اثر تناول القربان او بعد الخلاص الناتج عن الانضمام الى حفلة الذكر كلها أمثلة لهذه التجارب ومنها أيضا الشعور بتجلي الآله . وينحصر هم بعض الحركات الدينية في الازادة من هذه التجارب العاطفية ، مثل ذلك الفروض الروحية التي تقوم بها جماعات من اتباع الاديان الشرقية كحبس انفاسهم وكالصوم او الاصغاء الى الموسيقى او حضور قداس او انارة الشموع او قراءة مقتطفات من الكتابات الدينية بصوت رهيب مخيف وعلى مهل

على علم النفس محاولة تفسير هذه الظواهر كما يفسر كل ظاهرة نفسية اخرى مثل ظاهرة الشعور بتجلي الله في حالة تحكم الوعي الراقي Transcedental consciousness ولكن ليس في الامكان التعبير عن الحالات الدينية النفسية بالاصطلاحات النفسية العادية التي تطبق على ماهو غير ديني فعلم النفس الديني يرمي الى تطبيق المظاهر على المبادىء الدينية تلك المظاهر التي لها تأثير ملموس على السلوك الغريزي والعواطفي وفي الوقت الحاضر لم يعدهم علم النفس متجها إلى اثبات المدعيات الدينية بل البحث عن أسس المعتقدات والفرويدية (١) اثر ظاهر في هذا الميدان بالرغم عن وجود معارضين لا يستخف بهم لنظرياته

---

(١) مدرسة الاستاذ فرويد Freud البسيكولوجي الشهير

هناك أسباب لعدد عظيم مما نفكر فيه ونعمله تنتج عن تفاعلات فكرية لا نعيها ولا يتيسر لنا أن نعيها فصوت حركة قاص الساعة يسمع دون أن نعيه ولكن في مقدورنا ان نعيه اذا أصغينا اليه بعكس رغبات الاحلام وفلتات اللسان وهي تعبيرات تنبثق منا فجأة دون تفكير واع فهذه امثلة للتفاعلات الغير موعية والتي لا يمكن لنا أن نعيها ومن هذه التفاعلات ما هو غير مرغوب فيه فنحاول طرده لا عن وعي ولكن بلا وعي . كل هذا نرى اثره واضحاً في سلوك الناس وفي عواطفهم دون أن نتمكن من شرحه فاذا ما اشتد هذا التفاعل في شخص تسبب له عنه الجنون . مثلا

كان المسيو راتسبون يهودياً ثم اعتنق الكاثوليكية واصبح مسيحياً حقاً يكثر من الاختلاط بطائفة القس . اراد رجل افرنسي تحويله عن دينه وهو في العشرين من عمره فما كان يظهر ادنى اهتمام لحث الافرنسي . قرأ هذا المسيو ذات مرة صلاة ترفع إلى العذراء فشغلت فكرة لعدة أيام . رأى ايضا ذات ليلة في حلمه صليباً اسود ليس عليه جسد المسيح . قضى النصف الاول من ثاني يوم بحالة عادية تماما ولكن تصادف أنه قابل بعد ظهر ذلك اليوم صديقه الافرنسي الذي استمهله وقتاً ليؤدي عبادته بكنيسة قريبة . ولما تركه ، فكر اليهودي في دخول الكنيسة كي يمتع نظره بما تحويه من النفائس وعندما دخل شعر بتأثير عجز فيما بعد عن وصفه ، ملخصه تجلي العذراء له . ولما اتم الافرنسي عبادته عثر على اليهودي منطرحا على الارض يبكي فسر لذلك وسارع باحضار قسيس وهكذا انقلب اليهودي كاثوليكيا وبالفعل شعر بسلام داخلي لاعتقاده بأنه اعتنق الدين الحق . ومع ذلك لم يتمكن من تأويل ما وقع له

هذا مثل للايمان العنيف الطارىء يشرحه علماء النفس بانه تفاعل فكري غير موعى . فهذا اليهودي كان قد بدأ يقتنع بحقيقة الكاثوليكية دون أن يعي ولكنه كان يطرد هذه الفكرة كلما خالجته دون أن يعي أيضاً فحدث نضال عنيف مستور بين تقاليد وسطه وشعوره من جهة بين هذا التفاعل من جهة أخرى ولكن عملية الطرد هذه (Suppression) أصبحت وقتاً ما في حالة ضعف لتهزها غير ملتنصيره . أما رؤية الصليب فدليل على نفوذ الايمان الجديد إلى قلبه او بالاصح الى ما هو عقله الغير واعي (Unconscious mind) ولم تتأثر به الوعي اليقظ أبداً . وليس امتزاجه بالقسيس فيما بعد غير اندفاع شديد . ومن المشاهد أن التطرف في الكره قد ينقلب انقلابا

عكسياً وهذا هو الذي حدث بالضبط عندما وعى هذا اليهودي بانه قد وقف على معلومات جديدة وقد تغلغلت فيه دون أن يعرف كيف استأسرته . فهذا قد حدث دون أن يعي ماهو حادث ولا ينفي هذا حدوث التراكم وتثبت الافكار قبل ان يثور ثورته هذه

(وبهذه المناسبة التي ذكرت فيها العذراء يقول الملخص أنه يعتقد ان الجمال متسع لسرد حادثة وصلت إلى علمه قد يكون لها صلة بالموضوع مع الاعتراف بانه عاجز عن تكييفها على الصورة الصحيحة. كان فتى في العشرين من عمره أو حول هذا السن يحب فتاة حباً أفلاطونياً فدعاه هذا الحب الى التلذذ من التفكير في العذراء وطهارة العذراء وجمال العذراء وكان يسبح في عالم خيالي يصل فيه كل مرة الى تخيل العذراء في صورة مبهمة ولكنها جذابة فهل كان للعاطفة الجنسية المكتومة تأثير غير موعى عليه ؟ وكان يعيش في وسط مسيحي وكانت التي يحبها مسيحية تكثر من القسم بالعذراء والمسيح فهل لذلك دخل في الموضوع ؟ لا يستبعد الملخص انه كان في الامكان تحويل هذا الشخص الى المسيحية في حالة ضعفه هـــذه لو انتهز شخص الفرصة وشجعه على ذلك مع ملاحظة ان ذلك الشاب كان ولا يزال يحتقر المسيحية

ولهذه المناسبة أيضا يجدر ذكر رأي لبعض علماء النفس ملخصه ان لشخصية العذراء كما لشخصية المسيح دور عظيم في أغراء الشبان والشابات على الايمان والورع الطاهر)

يقول ثاوليس ان لغريزة الحب تأثير عظيم على أعمال الناس واحد هذه الأعمال هو الدين فالذين تأثروا به أما يندفعوا نحو الحماس الديني او يندفعوا إلى اكبار شأن الذي يحبون

قال أحد علماء النفس الأمير يكيين ان الأيمان (الدين) يصل الى ذروته عند ماتتجلى على العذراء صورة نقية تستدعي الأيمان بها كما وان الحب يبلغ ذروته اذا كان الأيمان الديني في اتقى درجاته وان الذين ليست لهم نظرة طاهرة في الحب هم أكثر الناس تحقيرا للأيمان .

ليس الأيمان الصحيح الا خيال الحب الدنيوي والقديس ليس الا صورة خيالية

للحبيب (١) فالترنم بحب الله هو لا أكثر من انعكاس للحب الجنسي الشديد الذي يتملك قلب المؤمن . كثير من المتعبدين يحتون إلى اناشيد سليمان (٢) وهي اناشيد غرامية خالصة . كان بلوسيوس Blosius إذا صلى يقول : ياحبيبي ، ياحبيبي ، ياحبيبي ، ياأعز الاصدقاء . أيها الحبيب الاوحد ، ياقرين الروح يازهرة الحب ، قرين روحي انت اشهى لدى من العسل في أكمامه . أيتها اللذة ، لذة القلب ، ياحياة النفس هدى النور في قلبي . مولاي ، الهي ، بامثلك الفداسة ، أيها الآله الاوحد ، ياأصل السعادة غذني ، أجل غذي نفسي ببركتك المتدفقة (٣) .

ولسوسو Suso (٤) صلاة عائلة هي : ياحبيبي انت بالحق لي عيد تتجلى فيه سعادتي الحقة انت بركة الصيف لروحي وانت ساعة سروري . انك المحبوب الاوحد الذي لا يفتكر في سواه ولا يحب غيره قلبي الصغير . من أجلك لم أهتم بالحب الدنيوي . ساعدي أيتها الروح الرقيقة الطاهرة من يعبدك كي يصل الى الفضيلة وكي يتوغل في طيبتك الكمينة ولا تدعيني أبعد عنك خلال الوقائع في هذا اليوم الذي هو رأس السنة .

أما رؤى القديسين فهي لا أكثر من أحلام كالتي تمر على كل انسان عادي ولكنهم يأولونها تأويلا دينياً فقد رأت سيدة حلما ملخصه حفلة ولادة فقالت تصفه : رأيت جسما مخيفاً لا شكل له محددا طلعته بحبولا من وحل لين وإذا فيه ينشأ فجأة مخلوق سوى هو طفل جميل أبيض اللون وبسرعة ارتفع الطفل الى السماء ، واستنتجت أن الوحل هو المادة (اللحم) الفانية القذرة ولم يكن الطفل في عرفها إلا النفس الطاهرة وقالت لم يكن هناك أي تناسق بين بشاعة الوحل وبين جمال الطفل وكذلك لم تلصق بالطفل آثار من نجاسة الاصل (٥) .

---

(١) اليس هناك صلة بين هذا القول وبين ما نقرأه من الشعر الآلهي لابن الفارض مثلا الذي اختلف الناس فيما اذا كان غزلا جنسيا او غزلا آلهيا ؟

(٢) راجع التوراة (كتاب العهد القديم)

(٣) كتاب الصلوات القلبية جمع ا . بولبني

(٤) راجع تاريخ هنري سوسو المنقول إلى الانكليزية بقلم ف . نوكس Knox

(٥) تجلي الحب الالهي بقلم جوليان أوف نورتش

وتهتم الاديان كثيراً بالورع و تتجه قوات المتصوف النفسية كلها إلى الله ولذلك لا يجد الحب الجنسي المبغوض منهم لديهم منفذاً خصباً ومن الضروري لنفسية المتصوف ملازمة الورع التام . وكل الاديان تحث على الوصول الى المثل الأعلا وعلى الورع ولكنها لا توجب الانقطاع عن ممازجة الغير الامر الذي يعتبر من ضروريات النفس المتصوفه حتى لا يتواجد حائل بينها وبين الاتجاه بنقاء إلى الخالق

حدث أن أرسلت والدة القديس اوف جنزاجا Gonzaga اليفتاة شرف برسالة وهو في الثانية عشر من عمره (١) فلم يسمح لها بالدخول وسمعها من شق الباب ثم طلب اليها بعد ذلك الرجوع الى أمه كما وأنه كان يمتنع من الانفراد بوالدته حتى إبان الطعام وقد اتفق مع والده على الطاعة التامة والقيام بكل ما يكلف به دون تردد نظير عدم اجبار والده إياه على مقابلة سيدات (٢)

أما تفسير العلم لهذه القصة فهو امتزاج العواطف الجامحة بحالة البلوغ فهذه هي الفترة التي يكثر فيها عدد الزاهدين فالزهد ملازم للبلوغ المشاب بالعاطفة الجامحة كنتيجة لنمو القوة الجنسية وعدم القدرة على تصريفها اما نتيجة للخجل الزائد أو لعدم العثور على فرد له جاذبية قوية ففي هذه الحالة يتجه البالغ المتأثر العواطف بكل قوته الى الله وكثيراً ما يكون اتجاهه هذا مؤقتاً أو يقوده الى الايمان المستمر بالدين فالتدين البلوغي (من بلوغ) قد يذهب أثره ولكنه يكون في الغالب سبباً في التدين المستمر ومعنى هذا يفيد اصطلاح (Erotogenesis) أي أن الدين ليس أكثر من سوء ترجمة للشعور الجنسي

وليس معنى ماسبق أن ليس للدين أسباب أخرى فشعور الجماعة الديني يجبر المرء على متابعتهم. كذلك تنافس النظريات الاخلاقية إذا اشتد تأثير مهم. ولايصح الاستناد على ماسبق للاستنتاج بانه لا أساس للأديان من الصحة فاذا أحبنا الله على الطريقة

---

(١) تاريخ القديس جونزاجا بقلم مستشر وبحث في الاختبارات الدينية بقلم وليم جيمس

(٢) لبعض العلماء النفسيين رأى مفاده أن بعض هذه الحالات يعود إلى اختلال في الاعضاء الجنسية أو في استعدادها ويكون ذلك اما كنتيجة لعدم المقدرة أو الاندفاع نحو الميل الجنسي الذي يعقبه رد فعل عكسي تماماً

التى نحب بها الناس لب [illegible] بل ان [illegible] ناتج عن خطأ تصورى فان ما أحاوله هو فقط استناج الدوافع الى الاذعان

يعتقد فرويد أن من الاسباب التى تنتج عنها الامراض العقلية عدم القدرة على التوران النفسى (Libido) المختفى ور ، الرغبة الجامحة للوصول الى الشخص المحبوب وانه من السهل مقاومة هذا التوران بتحويل اتجاهه الى ما هو مفيد . هذه هى طريقة الاخضاع (sublimation) فالمشاهد أن العقل المتجه نحو الاصلاح الاجتماعى أو إلى الفنون مثلا لا يتضرر إذا أخفق فى الحب

والفكر إذا جنح عن الحقيقة وجد أمامه مجالا واسعا للتخيل الذى يتزايد فيصبح نوعا من الجنون وإذا [illegible] النفس للجرى فى المجارى الدينية لا يمكن تقييدها بنظريات أو مبادىء فهم منفردة تحاول الوصول الى نتائج ذاتية وقد يكون جريها هذا سببا فى خروجها من الحياة العاقلة . فاذن للخص ما قلناه بأن من الواجب على النفسيين درس تحول الحب الانسانى الى تصوف وإلى اذعان لأنه من الثابت أن الغلو العاطفى المسمى تصوفا ولعبه البلوغ تأثير كبير على الدين وذلك نتيجة لعاطفة الحب الانسانى المحبوسة مع الشيء كثير من الغلو ؟

عمر عنايت

الجمال العارى

سألت أفروديت : هل لجمالى ثمن فى الوجود . قلت عرى
فاستراحت من شجوها وتعرت ثم مالت ، كالاقحوان ، أمامى
أى جسم وصنعة فى التفاطيع ونهد وفتنة فى القوام!
فوردت الفتون عباً ولمساً ورويت الصبا بكل حرام
ضل عن عيننا الوجود فغنانا لنصحو كويد رب الهام
أيها العاشقون للحسن هبوا للملذات قبل وقد الخمام
إن سن الشباب يسلى بتة واه ويحيا بالحب والآلام ،
فكينا على الجمال وأنا سوف نفنى : بلا هوى ، فى الرغام
فاغتنما من كل غم وهم ما صباباتنا بأقصى المرام
ليلة . ليتها بغير صباح لم تدع غير ذكرها . كالمنام
قانيون .

(زكى ...)

أطلب من دار العصور للطبع والنشر
ومن جميع المكاتب المعروفة

تاريخ الفكر العربى

فى نشوئه وتطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية